[٩١] واحذروا يامن فعلتم فعل اليهود والنصارىٰ وفرقتم القرآن وجعلتموه أقسامًا وأجزاءً؛ حيث إن منكم من قال: إنه سحر، ومنكم من قال: إنه كهانة؛ فسوف يحل بكم سخط الله وعقابه كما حل بمن قبلكم من اليهود والنصارىٰ الذين قسموا كتابهم علىٰ حسب أهوائهم ورغباتهم، وأنهم كانوا يؤمنون ببعض ولا يؤمنون ببعض.

[٩٢] ثم أقسم جل وعلا لنبيه ﷺ أنه لن يترك هؤلاء المشركين والمكذّبين والمستهزئين؛ بل ليسألنهم جميعًا يوم الجزاء والحساب.

[٩٣] ثم بين سبحانه أنه سيسألهم عن كل ما فعلوا من تكذيب وإعراض واستهزاء وأذية. [٩٤] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يجهر بما أمر به من الدعوة إلىٰ التوحيد، وترك الشرك والتنديد، وأن يظهر دينه، ولا يبالي بالمشركين. [٩٥] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أنه قد كفاه وحفظه من هؤلاء المستهزئين ومن استهزائهم.

[٩٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المستهزئين هم الذين يشركون مع الله آلهة أخرىٰ، وبين أنهم سوف يعلمون عاقبة استهزائهم وإشراكهم، وذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم. وهذا عام في كل من استهزأ برسول الله ﷺ، أو بما أنزل عليه؛ سواء في حياته أو بعد مماته ﷺ.

[٩٧] ثم يسلّي جل وعلا رسولَه ﷺ ويصبّره علىٰ احتمال الأذىٰ من المشركين، وأنه سبحانه يعلم بأن صدره يضيق وينقبض حزنًا من أقوالهم واستهزائهم، ورميه بالكذب والسحر والجنون، ويضيق صدره من مبالغتهم في كفرهم وعنادهم وتكذيبهم القرآن.

[٩٨] ثم ختم سبحانه السورة بإرشاد نبيه ﷺ إذا فزع وضاق صدره من أفعال وتصرفات قومه أن يسبح بحمد ربه شاكرًا له ومثنيًا عليه؛ فإن التسبيح ينجي من الهم والغم والخوف والحزن، ثم أمره بكثرة الصلاة فإن ذلك يكفيه ما أهمه.

[٩٩] ثم أمره أن يستمر في عبادة ربه، وأن يستكثر مما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأنواع العبادات والقربات؛ حتىٰ يحين أجله، ويأتيه الموت.

## سورة النّحل

سورة النحل مكيّة وآياتها ثمان وعشرون ومائة آية، وهذه السورة سماها شيخ الإسلام ابن تيمية: سورة تعداد نِعَم الله.

[١] بدأت السورة ببيان أن يوم القيامة آتٍ لا محالة في الوقت المحدد الذي يعلمه هو، فلا تستعجلوه أيها المشركون، وفي ذلك تسلية للمؤمنين بالنصر والثواب، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب، ثم نزه سبحانه وتعالىٰ نفسه عن إشراك المشركين. وقد عبر بالفعل الماضي فقال: ﴿أَتَىٰٓ﴾ تأكيدًا لإتيانه في المستقبل القريب، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ﴾ بهذه الصفة إجابة للكفار من قريش الذين استعجلوا العذاب، وقالوا للرسول ﷺ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦]، وقال تعالىٰ عنهم: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[العنكبوت:٥٤].

[٢] ثم أخبر جل وعلا أنه ينزّل الوحي علىٰ من يختار ويصطفي

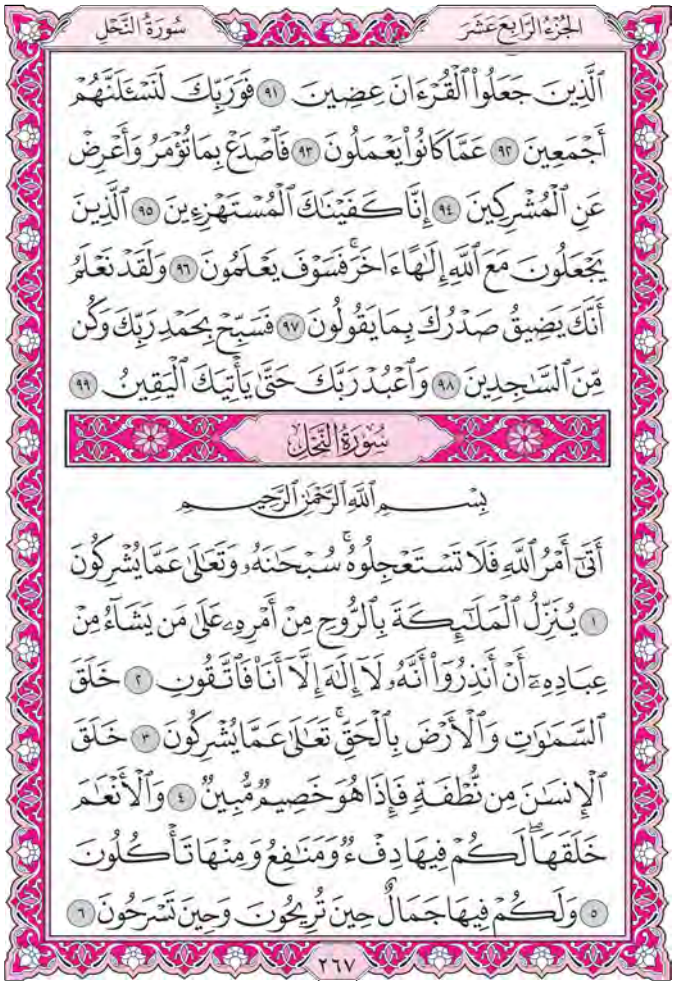


من عباده عن طريق جبريل عليه السلام، ثم بين سبحانه أن القضية الأساسية التي بُعث من أجلها هؤلاء الرسل: هي قضية الأمر بالتوحيد، والنهي والنذارة عن الشرك؛ فعلىٰ جميع الخلق أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية؛ بتوحيده وفعل أوامره، وترك الشرك واجتناب المعاصي.

[٣] ثم أخبر سبحانه أنه خلق الأجرام السماوية والأرضية بالحق الذي اقتضته حكمته، وللدلالة علىٰ قدرته وعظمته؛ ولأن مصالح عباده اقتضت ذلك، فتنزّه سبحانه وتعاظم بذاته وصفاته عن العبث.

[٤] ثم ذكر جل وعلا أنه خلق الإنسان من نطفة، ثم بعد تدرجه في مراحل النمو أصبح خصيمًا مبينًا، ومناضلًا مجادلًا، يدلي بالحجج، وهذا إثبات لعظمته وقدرته وحكمته، فسبحان من أحسن كل شيء خلقه.

[٥] ثم بين جل شأنه أن هذه الأنعام التي تحت أيديكم من إبل وبقر وغنم، خلقها الله لكم، ويسّر لكم عن طريقها منافع كثيرة، ومن ذلك: أنكم تتخذون من أصوافها وأوبارها ملابسَ تستدفئون بها في البرد الشديد، وتصنعون منها الأثاث والمساكن، وتنتفعون بركوبها واستخدامها في الحرث، وتنتفعون أيضًا بنتاجها مما تلد، ومما يخرج منها من اللّبن ومشتقاته، وتأكلون من لحمها الطيب.

[٦] ثم بين سبحانه أن لكم في هذه الأنعام جمالًا وزينة تسرّ الناظرين في ركوبها حين تسريحها إلىٰ مراعيها صباحًا، وحين ردِّها إلىٰ منازلها مساء.

[٧] ثم أخبر سبحانه أن من جملة منافعها: أنها تحملكم وتحمل ما ثَقُل من متاعكم وبضائعكم إلىٰ البلاد البعيدة، ولولا تسخير الله لها لمَا بلغْتم تلْكُم البلاد إلا بتعب شديد، ومشقة بالغة، ولكن الله ذللها وسخرها لكم لأنه رؤوف بعباده رحيم بهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لكم الخيل والبغال والحمير لتنتفعوا بها؛ فتركبوها أحيانًا، وتتخذوها للزينة أحيانًا أخرىٰ، ثم بين سبحانه أنه يخلق غير ذلك مما يركبه الإنسان وينتفع بجماله في البر والبحر والجو مما لا تعلمونه الآن، ومن ذلك وسائل المواصلات الحديثة، ومما يستحدث من الصناعات في المستقبل.

[٩] واعلموا أيها الناس أن علىٰ الله وحده توضيح طريق النجاة والاستقامة، التي من سلكها أوصلته إلىٰ سعادة الدارين، وأن هناك طرقًا لا توصل إلىٰ الهداية، وهي كل طريق يخالف ما جاء به ﷺ، وقد أرسل الله الرسل من أجل ذلك، ووضح كل رسول لأمته هذه الطرق، ثم أخبر جل وعلا أنه قادر علىٰ أن يهدي الناس جميعًا ويجعلهم علىٰ قلب رجل واحد، لكن لحكمته البالغة والتي خلق من أجلها الجنة والنار جعل كل شخص عاقلًا مختارًا، إما أن يختار سبيل الصلاح والاستقامة، وإما أن يختار سبيل الغواية والضلال، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: وضحنا له طريق الهدىٰ وطريق الضلال.

[١٠] ثم أسهب جل وعلا في ذكر نعمه علىٰ عبادة فذكر نعمة إنزال الماء من السماء، وأنه جعل هذا الماء مباركًا طهورًا تشربون منه، وأنه أنبت بهذا الماء الشجر الذي ترعون فيه أنعامكم، وتقوتون به أنفسكم.

[١١] ثم بين سبحانه أنه أنبت بهذا الماء الثمار المختلفة، والزيتون والنخيل والأعناب، وكل أنواع الثمار والفواكه، ثم حث جل شأنه علىٰ التفكر في عظمته وقدرته علىٰ إحياء الأرض الميتة وإحياء الأموات يوم القيامة.

[١٢] ثم أخبر جل في علاه أنه سخر لكم الليل لمنامكم وراحتكم، والنهار لمعاشكم، وجعلهما يتكرران بانتظام وذلك دليل علىٰ عظمة الله وقدرته وحكمته، وأنه سخر لكم الشمس ضياء والقمر نورًا، ومن خلالهما تستطيعون معرفة عدد السنين والحساب، وجعل النجوم في السماء مسخرات لكم لمعرفة الأوقات والاهتداء بها في الظلمات، ومعرفة وقت نضوج الثمار والزروع، وكل ذلك مسخر بأمر الله وحده، واعلموا أن في خلق هذه الكواكب والأجرام لدليل واضح وبرهان ساطع لقوم يعقلون حجج الله وبراهينه الدالة علىٰ عظمته وحكمته.

[١٣] ثم بين سبحانه أنه سخر الأرض وما عليها باختلاف ألوانها وأشكالها لمنفعة البشر، واعلموا أن في ما ذكره الله من هذه النعم لعبرة وموعظة لقوم يذكرون نعم الله فيشكرونه ويؤدون حقها.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه سخر لكم البحر لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا طريًّا، والجمهور علىٰ أن كل ما احتواه البحر أو ما رماه علىٰ الشواطئ حلال، وقال آخرون: إن سرطان البحر والتمساح والضفدع حرام، ثم مكنكم سبحانه أن تستخرجوا من هذا البحر الحلي التي تستخدم في الزينة، ثم أخبر أنه جعل السفن والقوارب تسير فيه ذهابًا وإيابًا لقضاء مصالحكم من تجارة وصيد وغير ذلك، وكل هذه الأنعام سخرها لكم لتكثروا من شكره سبحانه علىٰ هذه النعم.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل في الأرض جبالًا ثابتة لكي تقر وتثبت ولا تضطرب، وأنه جعل فيها أنهارًا عذبة لتشربوا من مائها، وتسقوا منها مزارعكم، وأنه جعل فيها طرقًا لتكون معالم للناس يهتدون بها في الوصول إلىٰ أماكنهم.

[١٦] ومن نعمة الله علىٰ عباده أنه جعل في الأرض علامات يهتدون بها أثناء سيرهم في النهار، وكذلك جعل لهم هذه النجوم التي في السماء ليستدلوا بها أثناء سيرهم في الليل.

[١٧] ثم قال سبحانه: هل من خلق هذه المخلوقات التي ذكرنا لكم بعضها، وأتقن خلقها، كمن لا يستطيع عمل شيء مثلها، أفلا تتذكرون عظمة الله في خلقه فتعبدونه حق عبادته.

[١٨] وبعد أن عدد جل وعلا بعض نعمه علىٰ عباده وما فيها من الفوائد؛ أخبر أنه لا يمكن لأحد من تعدادها وحصرها مهما حاول واجتهد في ذلك، وصدق الله العظيم فمن الذي يستطيع حصرها وضبطها غيره سبحانه، إن الله لغفور لعباده التائبين، رحيم بهم؛ حيث لا يؤاخذهم إذا شكروا نعمه.

[١٩] واعلموا أن الله جل وعلا وحده هو الذي يعلم ما تسرّون وتخفون وتكتمون، ويعلم ما تُعلنون وتُظهرون.

[٢٠] واعلموا أن هذه الآلهة الباطلة التي يعبدها المشركون من دون الله لا تخلق شيئًا علىٰ الإطلاق؛ بل هم مخلوقون؛ فكيف مَنْ كانت هذه حاله أن يُتخذ آلهة من دون الله؟!

[٢١] ثم بين سبحانه أن هذه الآلهة أموات لا حياة فيها ولا روح، وأنها لا تسمع ولا تعقل عن موعد يوم القيامة والبعث والنشور شيئًا.

[٢٢] واعلموا أن إلهكم الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الله جل في علاه، وهو واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدًا، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، واعلموا أن الذين لا يستسلمون لله، ولا يصدقون باليوم الآخر، قلوبهم تُنكِر هذا التوحيد الحق، وهم مستكبرون معاندون.

[٢٣] واعلموا أن الله حقًّا يعلم ما يخفيه هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم القبيحة، وسوف يجازيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، واعلموا أن الله لا يحب المتكبرين علىٰ طاعته وعبادته. وقوله: ﴿ لَاجَرَمَ ﴾، أي: حقًّا، وهي تحمل معنىٰ القسم.

[٢٤] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه كلما سأل أحد من زوار الكعبة من الكفار عن النبي ﷺ وما أنزل عليه، قالوا: أنزل أباطيل وأحاديث الأمم السالفة، وليست إنزالًا من الله، وهذا يعني: أن من الكفار

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ
غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم
مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾


من نصبوا أنفسهم لمعاندة دعوة الرسول ﷺ، وتحذير غيرهم من سماعه.

[٢٥] ثم أخبر سبحانه أن عاقبة هؤلاء المشركين الذين نصبوا أنفسهم لمعاندة دعوة الرسول ﷺ أنهم يحملون آثامهم الخاصّة، وآثام الذين يقلدونهم كاملة يوم القيامة، ويحملون أيضًا من آثام الذين كذبوا عليهم ليبعدوهم عن الإسلام من دون أن ينقص من آثامهم شيئًا، ألا قبحًا لهم وما يحملون من الذنوب والمعاصي يوم القيامة.

[٢٦] واعلموا أن من سبقكم من المشركين في الأمم السابقة كادوا لرسلهم المكايد؛ فأحبط الله كيدهم، وكانت عاقبتهم أن الله سلط عليهم العذاب من كل الجهات؛ فزلزل بنيانهم من أساسه فسقط عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، وفي هذا تحذير لهم؛ فكما أن العذاب لحقهم بسبب كفرهم وجحودهم؛ فسوف يدرككم العذاب أيضًا إذا لم تؤمنوا بالله ورسوله، وهذه سنة الله في خلقه لا تتغير ولا تتبدل.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ
ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾
ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن
تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾



[٢٧] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يذل ويهين ويفضح هؤلاء المشركين ثم يُدخلهم النار، ويقول لهم علىٰ وجه التوبيخ والتقريع والتبكيت: أين مَنْ كنتم تتخذونهم شركاء تعبدونهم من دوني، وتعادون الأنبياء والمؤمنين من أجلهم؟! أين هم الآن ليدفعوا عنكم ما أنتم فيه!! فيجيب العلماء الربانيون: إن الخزي اليوم والذل والعار واقع علىٰ الكافرين الجاحدين الذين لم يؤمنوا بالله ولم يوحدوه.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أن الملائكة تتوفَّىٰ هؤلاء الكافرين وتقبض أرواحهم وهم علىٰ حال ظلمهم لأنفسهم بشركهم وعنادهم، فحينها يستسلمون وينكرون شركهم بالله، ويدَّعون أنهم ما كانوا يعملون المعاصي والسيئات، فيأتيهم الجواب: (بلىٰ) كنتم تعملون أعظم السوء، وهو الشرك وتقيمون عليه، وإن الله مطلع عليكم في جميع أحوالكم، ويعلم ما أنتم عليه، وهذا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا.

[٢٩] ثم يقال لهؤلاء المشركين: ادخلوا النار من أبوابها وعليكم الذل والصغار، لا تخرجون منها أبدًا، فبئست النهاية نهايتكم، وبئس المقر مقركم، وبئست عاقبة الذين تكبروا علىٰ التوحيد والإيمان.

[٣٠] ثم قيل لأهل الإيمان والتقوىٰ: ماذا أنزل ربكم علىٰ محمد ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الرحمة والنور والبركة والهداية للناس، ثم جازىٰ سبحانه هؤلاء المؤمنين أهل التقوىٰ علىٰ إحسانهم في حياتهم الدنيا الجزاء الحسن الكريم، ثم وعدهم جل وعلا أن لهم في الدار الآخرة من الجزاء ما هو خير لهم مما أعطاهم في حياتهم الدنيا وهو دخولهم الجنة، ولنعم دار المتقين دار الآخرة دار أهل الإيمان والصلاح والتقوىٰ.

[٣١] ثم بين سبحانه ما لهؤلاء المتقين في الدار الآخرة؛ حيث أخبر أن لهم جنات دائمة يقيمون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا، تجري من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها الأنهار، ولهم فيها كل ما تتمناه أنفسهم من أنواع الملذات، وبمثل هذا الجزاء الحسن يجزي سبحانه عباده المتقين الذين امتثلوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهىٰ عنه.

[٣٢] ثم أخبر جل في علاه عن حال هؤلاء المتّقين عندما تتوفاهم الملائكة: أنهم طيبون، مطيَّبون، طاهرون من دنس الشرك، مطهَّرون من النقائص، فتحييهم الملائكة وتسلم عليهم، فيحصل لهم الأمان، وتحصل لهم البشرىٰ، ثم تقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة التي أعدها الله لكم جزاءً بما كنتم تعملون من التوحيد والإيمان والأعمال الصالحة.

[٣٣] ثم قال سبحانه: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلَّا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم؟، أم ينتظرون أن يحلَّ عليهم أمر الله بعذاب يستأصلهم فيهلكهم؟، كما فُعِلَ بالذين من قبلهم الذين كذّبوا ولم يؤمنوا فعمَّهم الله بعقابه، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن هم الذين طغوا وتجاوزوا حدودهم فأهلكوا أنفسهم.

[٣٤] ثم بين سبحانه أنه بسبب إعراضهم عن التوحيد، وإصرارهم علىٰ الشرك والضلال، أصابتهم العقوبة، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا ينكرونه ويستهزؤون به من كل جانب عند تخويف الرسل إياهم.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن مشركي مكة وغيرهم قالوا: لو أراد الله أن نعبده وحده ما عبدنا أحدًا غيره، لا نحن ولا آباؤنا مِن قبلنا، ولا حَرَّمَنا شيئًا لم يحرمه الله، وهذه مقولة العصاة والكفار والمشركون من زمن النبوة إلىٰ يومنا هذا، وقصدهم بها: ما دام أن الله قادرٌ علىٰ أن يحول بينهم وبين الشرك والمعاصي ثم لم يفعل فإنه إذًا راض بفعلهم وموافق عليه؛ وحينئذٍ لن يعاقبهم عليه، وهذا احتجاج باطل، وكذب علىٰ الله، ومع قدرته سبحانه علىٰ منعهم فقد جعلهم مختارين ولم يجبرهم، فاختاروا الضلال علىٰ الحق بطوعهم، وبمثل هذا الاحتجاج الباطل من قومك يانبي الله احتج الكفار السابقون، فإن الله أمرهم ونهاهم ولكنهم اختاروا الضلال علىٰ الهدىٰ، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وأتباعه، ثم ختم سبحانه الآية ببيان أن الرسل الكرام ليس عليهم إلا التبليغ الواضح البيِّن لأحكام الله.

[٣٦] ثم بين سبحانه أنه أقام الحجّة علىٰ عباده بأن أرسل في كل أمة رسولًا منهم يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته، وينهاهم عن الشرك، ويأمرهم بالكفر بالطاغوت - وهو كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع -، ثم يخبر الله عن حال الناس مع رسلهم، وأنهم انقسموا إلىٰ فريقين: فريق آمن ووحّد واتبع فنال هداية الله، والسعادة في الدارين، وفريق كذَّب وعاند وكفر، فاستحق الضلالة، والشقاوة في الدارين، ثم أمر سبحانه الناس أن يمشوا في الأرض لأخذ العظة والعبرة، ويتأملوا بقلوبهم، وينظروا كيف كانت نهاية ومصير من كذّب وعاند واستكبر، وكيف كان إهلاك الله له.

[٣٧] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ومهما تبذل يارسول الله من جهود لهداية هؤلاء المشركين المصرين علىٰ الكفر والجحود فلن ينفعهم حرصك، لأن حكمة الله اقتضت أن لا يهدي من يختار الضلالة بطوعة وإرادته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥]، وإضلال الله لهم إضلال جزائيٌ وليس ابتدائيًا، وهو مبني علي ضلالهم الاختياري، واعلم أن هؤلاء الذين اختاروا الضلال علىٰ الهدىٰ ليس لهم أحد ينصرهم ويقيهم من عذاب الله.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين ومنكري البعث بذلوا جهدهم في الحلف أيمانًا مغلظة مؤكَّدة أن الله لا يبعث من يموت، ولا يعيده مرة أخرىٰ بعد أن بَلِيَت عظامه وصارت رميمًا، فأجابهم الله تعالىٰ بقوله: (بلىٰ)، أي: ستُبعَثون وتُنشَرون، وهذا وعد حقٌّ من الله لا خُلْف فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنَّ ذلك علىٰ الله يسير، فينكرون ذلك بسبب اتباعهم الهوىٰ والشيطان.

[٣٩] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يبعثهم جميعًا يوم القيامة ليبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، وليبين لهم حقيقة البعث الذي أنكروه وحلفوا علىٰ إنكاره، وحينها سيعلم الذين كفروا وجحدوا وحلفوا؛ أنهم كانوا كاذبين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
(٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٧)
وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)


[٤٠] ثم بين جل وعلا أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وإذا أراد سبحانه شيئًا قال له: (كن)؛ فيكون مباشرة.

[٤١] واعلموا أن الذين تركوا أهلهم وديارهم وأوطانهم في سبيل تحقيق رضا الله، وابتغاء ما عنده، وهاجروا إلىٰ الله نصرةً لدينه من بعد ما عذّبوا وأهينوا وامتُحنوا من أجل دينهم؛ فهؤلاء وعدهم الله أن يسكنهم في دار الهجرة دارًا حسنة، وأن يرزقهم الله رزقًا واسعًا، وأن يُحْيِيَهُمْ حياة طيبة وهم أعزاء شرفاء، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد وعدهم الله أجرًا أكبر، وحظًّا أوفر، فلو علم المتخلفون عن الهجرة بما أعد الله للمهاجرين في سبيله علم اليقين؛ لَمَا تخلف ولا تباطأ أحد عن هذه الهجرة.

[٤٢] ثم ذكر جل وعلا صفتين عظيمتين جليلتين من صفات أوليائه المهاجرين، وهما: الصبر والتوكل، فهاتان الصفتان بهما ملاك الأمور، ولا غنىٰ عنهما للمهاجر وغيره، فالصبر علىٰ أوامر الله ونواهيه وأقداره المؤلمة، والصبر علىٰ مشاق الهجرة، والتوكل والاعتماد علىٰ الله وتفويض الأمر إليه وتقديم محابِّه ورضاه علىٰ محابِّ النفوس ورضاها.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ
ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾
أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ
أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ
فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ
يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ
وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ
ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا
كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾



[٤٣] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه ما أرسل من قبله إلَّا رجالًا من البشر لا من الملائكة، وأنه أوحىٰ إليهم وأنزل عليهم الشرائع والأحكام ليدعو الناس إلىٰ عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ثم وجَّه الله خطابًا لمشركي مكة - الذين زعموا أن الله أجلُّ مِنْ أنْ يُرسل رسولًا مِنَ البشر -، بأن يسألوا مؤمني أهل الكتاب إن كانوا لا يعلمون؛ ليخبروهم بحقيقة الأنبياء وأنهم بشر.

[٤٤] ثم بين سبحانه أنه أرسل هؤلاء الرسل بالآيات البينات الواضحات، وبالزبر، أي: الكتب المجموع بها الأحكام، ليدعوا الناس إلىٰ عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وبين أنه أنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الذكر علىٰ الإطلاق؛ ليبين للناس ويوضح لهم ما جاء فيه من العقائد والأحكام والشرائع؛ لعلهم يتدبرون آياته ويعقلونها ويتفكرون فيها فينتفعون بها.

[٤٥] ثم قال جل في علاه: هل أمن الذين مكروا المكر السيِّيء بكفرهم وعنادهم وصدِّهم عن سبيل الله أن يخسف الله بهم الأرض من تحتهم فيتجلجلون فيها؟ أم أمنوا أن يعمهم الله بعذاب يستأصلهم من حيث لم يحتسبوا، ومن حيث لا يحسون ولا يتوقعون؟!.

[٤٦] وقال جل في علاه: أم أمنوا أن يأخذهم الله وهم في غفلة أو في تقلب وشغل أو سفر وغير ذلك؟! فليعلموا أنهم ليسوا بسابقين الله ولا فائتينه، ولا ممتنعين عن عذابه بإرادتهم ولا بقوتهم مهما عظمت.

[٤٧] وقال جل في علاه: أم أمنوا أن يأخذهم الله بالعذاب وهم متخوفون منه ومتوقعون لحصوله، فإن ذلك لا يمنعهم أيضًا من نزول العذاب بهم؟! ولكنَّ الله جل وعلا رؤوف بعباده رحيم بهم، لا يعاجلهم بالعقوبة والعذاب؛ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهرها من دابة؛ بل يمهلهم جل وعلا علَّهم أن يتوبوا ويرجعوا إليه؛ فإذا عاقبهم سبحانه بسبب عنادهم وإصرارهم علىٰ الكفر والضلال فإن أخذه شديد أليم.

[٤٨] ثم قال سبحانه: أوَلَمْ ينظر هؤلاء الكفار نظر تأمل وتفكّر في هذه المخلوقات التي خلقها الله -من جبال وشجر ودواب وغير ذلك-، وخلق لها ظلًا يتنقل يمينًا وشمالًا في الصباح والمساء، والأشجار والظلال في هذه الحالات تسجد لله وتسبحه، وهي ذليلة خاضعة خاشعة لعظمته جل وعلا، أليس في هذا دليل علىٰ وحدانية الله وعظمته!! وأنه المستحق للعبادة دون ما سواه!!

[٤٩] ثم أخبر جل وعلا أن له وحده يسجد ويخضع ويذل كل ما في السماوات والأرض من مخلوقات، ومنهم الملائكة الكرام، فإنهم يسجدون لله ويسبحونه ولا يستكبرون عن عبادته.

[٥٠] وهؤلاء الملائكة الذين يسجدون لله ولا يستكبرون من صفاتهم: أنهم يخافون من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف، وأنهم لا يعصون لله أمرًا؛ بل يفعلون وينفِّذون جميع ما يؤمرون به، وكذلك جميع المخلوقات ينفِّذون جميع ما يؤمرون به إمّا كرهًا أو طوعًا؛ ما عدا الإنس والجن؛ فمؤمنهم يسجد لله طوعًا، وكافرهم يمتنع من السجود.

[٥١] ثم أمر جل وعلا عباده بتوحيده، ونهاهم عن الشرك به؛ فقال سبحانه: لا تعبدوا أيها الناس إلهين اثنين، لأن المستحق للعبادة إنما هو إله واحد؛ فيجب أن تعبدوا هذا الإله وحده دون ما سواه، ثم أمر سبحانه عباده أن يخافوه وحده خوف العبادة؛ بأن يمتثلوا أمره فيعبدونه ويرهبونه وحده ولا يشركون به شيئًا.

[٥٢] واعلموا أن الله وحده هو الذي يملك كل ما في السماوات والأرض، وهذا أمر ثابت لا يتغير ولا يتبدل، وأن له وحده العبادة والطاعة والدين الخالص في جميع الأوقات والأحوال، فهل يليق بكم بعد ذلك أن تعبدوا وتخافوا وتخشوا أحدًا غير الله؟!.

[٥٣] يخبر جل وعلا أن جميع النعم التي يتنعم بها الناس من الصحة والمال والأولاد وغيرها هي منه وحده؛ فإذا نزل ببعضهم الشر والبلاء رفعوا أصواتهم بالدعاء والتضرع إلىٰ الله لينجيهم ويكشف ما بهم من الضر.

[٥٤] فإذا كشف الله ضرهم ونجاهم فإن جماعة منهم يعودون إلىٰ الشرك والذنوب والمعاصي، وينسون مسبب الأسباب الذي كانوا يضجون إليه بالدعاء، وينسبون النجاة للطبيب، أو قائد المركبة، ونحو ذلك.

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ
وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۖ وَتَصِفُ
أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ
فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾



[٥٥] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين نجاهم مما كانوا فيه من الضر ثم عادوا إلىٰ الشرك والمعاصي؛ أنهم جحدوا نعم الله عليهم، فتوعدهم علىٰ جحودهم فقال سبحانه: فتمتعوا أيها المجرمون بشرككم فسوف تعلمون عاقبة أمركم، النار وبئس المصير.

[٥٦] ثم أخبر جل شأنه أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم - التي لا تعلم شيئًا ولا تنفع ولا تضر - نصيبًا من أموالهم وأنعامهم، التي رزقهم الله إياها، ويتقربون إليهم بذلك!، وهذا من أكبر الجهل وأعظم الشرك؛ لذا أقسم الله جل وعلا أنهم سيسألون عن هذا الافتراء وسيحاسبون عليه.

[٥٧] ثم بين سبحانه أن من تمادي هؤلاء المشركين في طغيانهم وعنادهم واتخاذهم آيات الله هزوا؛ أنهم كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله؛ تنزه الله وتعالىٰ عن قول الظالمين علوًّا كبيرًا، والأعجب من ذلك أنهم يجعلون لأنفسهم الذكور؛ لأنهم كانوا يحبونهم ويفضلونهم علىٰ البنات تفضيلًا شديدًا.

[٥٨] وأخبر سبحانه أيضًا: أنه إذا بشر أحدهم أن زوجته ولدت له أنثىٰ؛ فإنه يغتم بذلك أشدّ الغم، ويظهر أثر ذلك الغم علىٰ وجهه بالسواد، ثم هو يكتم ذلك ويُخفي حزنه حتىٰ لا يفتضح عند قومه.

[٥٩] ثم أخبر سبحانه أنه يتوارىٰ ويتخفىٰ عنهم مترددًا فيما يفعله مع هذه الأنثىٰ، هل يبقيها عنده فيتحمل بسبب ذلك الذل والهوان والعار؟! أم يتخلص منها بدفنها حيَّة في التراب؟! ثم شنَّع الله علىٰ هؤلاء المشركين حكمهم وافتراءهم بأن جعلوا لله البنات سبحانه وتعالىٰ، وجعلوا لأنفسهم ما يحبّون.

[٦٠] ثم أخبر جل في علاه أن الذين لا يؤمنون ولا يصدّقون بالبعث والجزاء والحساب فيقعون في الشرك والظلم ينطبق عليه المثل السيىء والعيب التام؛ أما الله جل شأنه فله كل صفات الكمال والعظمة والجلال؛ فلا يليق أن يكون له إلا المثل الأعلىٰ، وهو سبحانه العزيز الذي قهر كل شيء، والحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، سبحانه وتعالىٰ عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

[٦١] واعلموا أيها الناس لو أن الله سبحانه وتعالىٰ يؤاخذ الظالمين بما يفعلون من الظلم والشرك والمعاصي، ويعاجلهم بالعقوبة؛ لما ترك علىٰ الأرض منهم من أحد يدب عليها لكثرة ذنوبهم، ولكن يمهلهم سبحانه فضلًا وكرمًا منه حتىٰ تنتهي أعمارهم المقدرة سلفًا، أو لعل العاصي يتوب ويندم، ولعل الكافر يهتدي إلىٰ الحق ويُسلم، وهذا من لطف الله بعباده المؤمنين والكفار والعصاة، فإذا حان وقت إهلاكهم فإنهم سوف يفارقون الدنيا بدون أي تأخير أو تقديم.

[٦٢] ثم بين سبحانه أن من إجرام هؤلاء المشركين، وشدّة كفرهم وعنادهم أنهم يصفون الله بأوصاف قبيحة لا يرتضونها لأنفسهم، فينسبون له البنات، ثم يتبجحون قائلين بألسنتهم: أنَّ لهم في الآخرة الجنة وأنهم مكرَّمون، فيجيبهم جل وعلا: حقًّا -لا محالة- إنَّ لكم في الآخرة عذاب النار، وأنكم فيها خالدون متروكون، ومنها لا تخرجون.

[٦٣] ثم يسلِّي جلَّ وعلا رسوله ﷺ، فيقول له: قسمًا بالله يانبي الله لقد أرسلنا رسلًا من قبلك إلىٰ أقوامهم فجاؤوهم بالآيات البينات الواضحات التي تدل علىٰ وحدانية الله، فما تبعوا رسلهم؛ بل كذّبوهم، واتّبعوا تزيين الشيطان لهم أعمالهم من الكفر والتكذيب، وبذلك صار الشيطان وليًّا لهم، يتبعونه ويطيعونه، فلهم اليوم بسبب كفرهم وتوليهم الشيطان عذاب أليم موجع لا يطاق.

[٦٤] ثم بين سبحانه أنه ما أنزل هذا القرآن علىٰ نبيه ﷺ إلَّا ليوضح للنَّاس الحقائق ويبين لهم حقيقة ما يختلفون فيه من التوحيد والشرك، والهداية والضلال، وليعلموا أن هذا القرآن هو طريق الهداية القويم، من أَخَذَ به نَجَا، وأنه رحمة ونجاة للمؤمنين الذين آمنوا وصدقوا به.

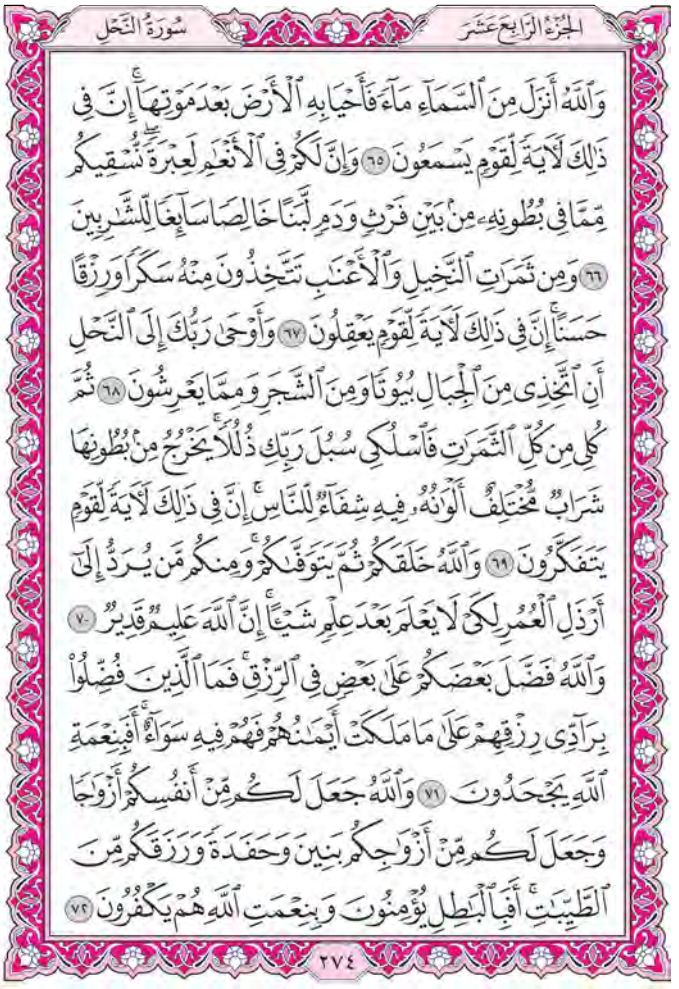

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم
مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ
﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۗ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ
أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾
وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟
بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾



[٦٥] يخبر سبحانه وتعالىٰ أنه وحده هو الذي تفضل علىٰ عباده بأن أنزل المطر من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها؛ فاخضرت بعد قحطها، واهتزت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وقد جعل الله في ذلك آية وعلامة واضحة علىٰ وحدانيته سبحانه، وعلىٰ إحيائه للموتىٰ، وعلىٰ البعث والنشور، واعلموا أن هذه الآيات يستفيد وينتفع بها من يستمع إليها استماع تدبر وإقبال، لا استماع تكبر وإدبار.

[٦٦] ثم أخبر جل في علاه أنه جعل للناس في الإبل والبقر والغنم آية وعظةً؛ حيث أخرج سبحانه من أحشاء هذه الأنعام لبنًا خالصًا صافيًا ناصعًا غير مشوب بكدر؛ تستسيغه نفوسهم؛ فيشربونه ويتلذَّذون به، ويتغذون عليه.

[٦٧] ثم أخبر سبحانه أن مما أنعم به عليكم أيها الناس: أن جعل لكم منافع في ثمرات النخيل والأعناب، فتأكلون منها تمرًا وزبيبًا ودبسًا، وتجعلون من عصيرها نبيذًا وشرابًا مسكرًا، وذلك قبل تحريم الخمر؛ حيث حرِّمت الخمر تدريجيًّا، وهذه أول آيات التحريم؛ حيث قال بعد قوله: ﴿سَكَرًا﴾، قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، يعني: أن السُّكر ليس رزقًا حسنًا، واعلموا أن في تسخير ذلك لكم لآية واضحة علىٰ وحدانية الله واستحقاقه العبادة دون ما سواه، وإنما ينتفع بهذه الآيات من أعمل عقله في تدبّر البراهين والدلائل التي تدل علىٰ وحدانيته.

[٦٨] ومن نعمه جل وعلا علىٰ عباده أنه ألهم النحل وعلمه أن يبني له بيوتًا يسكن فيها، وتكون هذه البيوت في الجبال والأشجار والعروش التي تبنىٰ من الأشجار الملتفة فتجعل علىٰ شكل سقف يجلس الناس تحته.

[٦٩] ثم ألهم سبحانه هذا النحل أن يأكل من كل الثمرات والزهور في كل الأراضي والمراعي، وألهمه سبحانه وسهّل له أن يسلك طرقًا للبحث عن هذه الثمرات، وأن يرجع إلىٰ مسكنه دون أن يخطئ أو يضل، ثم بعد ذلك يُخرج هذا النحلُ شرابًا من العسل صافيًا، وبألوان مختلفة بحسب المراعي والأزهار، وفي هذا العسل اللذيذ شفاء من الأمراض والأدواء، وفي هذا أعظم الأدلة علىٰ وحدانية الله وحكمته وجميل لطفه بعباده، ولكن لا يتفطن لذلك ولا ينتبه لهذه الآيات والدلائل إلَّا أصحاب العقول الراجحة الذين يتفكرون ويتأملون فيعتبرون ثم يؤمنون ويوحدون الله ويشكرونه.

[٧٠] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه هو الذي أحياكم وأوجدكم من العدم، وهو وحده الذي يتوفاكم ويقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، ثم أخبر سبحانه أن من الناس من يبقيه الله ويطيل في عمره فيصل للهرم وأسوأ مراحل العمر؛ فيذهب عقله ويصاب بالخرف، ويصير كالطفل الذي لا يعرف شيئًا بعدما طاف في هذه الحياة وجال فيها، واعلموا أن الله عليم بكل شيء، قدير علىٰ كل شيء، لا يخفىٰ عليه شيء، ولا يعجزه شيء سبحانه وتعالىٰ.

[٧١] واعلموا أن الله جل في علاه هو خالق الناس ورازقهم، وقد فضّل بعض الناس علىٰ بعض في الرزق، فوسع علىٰ بعضهم، وقَدَرَ علىٰ آخرين، أغنىٰ البعض، وأفقر آخرين، فمنهم الغني الذي له ثروات كثيرة، ومنهم الفقير، ومنهم المملوك الذي لا يملك أمر معيشته؛ فهؤلاء الأغنياء ما كانوا ليُعطوا الفقراء نصف أموالهم أو ما زاد عن حاجتهم لهم ليصيروا به أغنياء مثلهم، ويشاركوهم في التمتع بالسيادة والرزق الواسع؛ فكيف لا يرضون هذا لأنفسهم، ويقبلون أن يجعلوا لله شركاء من خلقه؟!! إن هذا لَمِنْ أبطل الباطل وأعظم الجحود لنعم الله جل وعلا والكفر بها.

[٧٢] واعلموا أيضًا أن الله وحده هو الذي امتن علىٰ عباده وأنعم عليهم بنعمة الزواج؛ هذه النعمة التي تَسْكن النفس بها، ثم تتولد منها نعمة أخرىٰ، وهي نعمة الولد والذرية، وأخبر أنه وحده هو الذي تكفّل برزق الجميع؛ فأخرج لعباده من الرزق ما تطيب به نفوسهم، أبعد هذا كلّه يؤمن المشركون بالباطل الذي هو الشرك ويصدّقون به؟!، ويكفرون ويجحدون توحيدَ الله وألوهيتَه الذي هو الحق، ويكفرون بنعمه؟! إن هذا لَمِنْ أعظم الظلم، وأفجر الفجور.

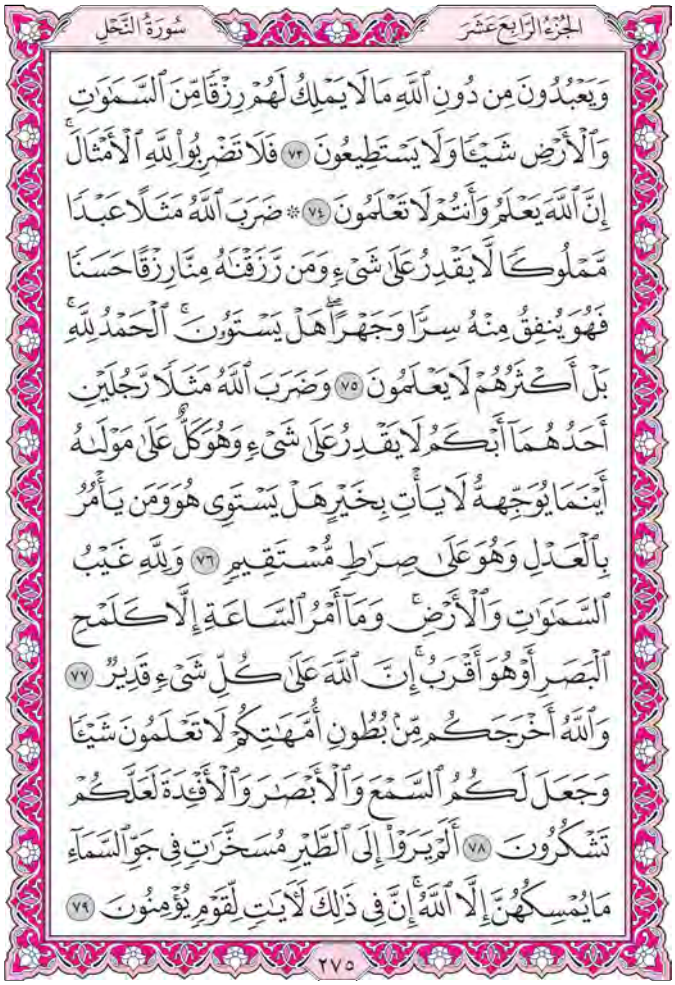


[٧٣] يخبر جل وعلا عن قبيح فعل المشركين، وأنهم يتوجهون بالعبادة لهذه الآلهة المزعومة التي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك من الأمر شيئًا؛ فهم لا يستطيعون إنزال المطر والرزق من السماء، ولا يستطيعون إنبات النبات من الأرض، فكيف يعبدونهم من دون الله؟!

[٧٤] ثم نهاهم جل وعلا عن تشبيهه وتمثيله وتسويته بغيره سبحانه وتعالىٰ فلله المثل الأعلىٰ، وفي ذلك نهيٌ لهم عن اتخاذهم أربابًا من دون الله، إن الله يعلم حقيقة كل شيء وأنه لا إله إلا هو، وأنتم أيها المشركون تظلمون أنفسكم فتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون مما لا يليق به سبحانه وتعالىٰ.

[٧٥] وبعد أن نهىٰ جل وعلا المشركين عن ضرب الأمثال المتضمنة للشرك؛ ضرب سبحانه وتعالىٰ مثلًا بيَّن فيه فساد عقيدة هؤلاء المشركين وفساد تسويتهم الخالق بالمخلوق، فضرب الله المثل برجلين: أحدهما عبد مملوك لا يملك من أمره شيئًا، والآخر: رجل حرٌّ غني له مال، وهو محسن يُحب الإنفاق فيعطي من ماله ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فهل يستوي الرجلان؟! الجواب: لا يستويان؛ إذًا كيف تُسوون أنتم أيها المشركون بين الخالق والمخلوق؟!، وكيف تُسوون بين الرب الرازق والعبد الذي لا يملك لنفسه شيئًا؟! فالحمد لله وحده الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

[٧٦] ثم ضرب الله مثلًا ثانيًا بين فيه قبح الشرك وبطلانه؛ فضرب سبحانه مثلًا برجلين: أحدهما أبكم لا يسمع ولا يتكلم؛ فلا يَفهَم ولا يُفهِم، فهو عالة وعبء ثقيل علىٰ من يقيم عنده ويتولىٰ شؤونه، إذا كلّفه بأمر لا ينجزه؛ بل يجلب له الضرر - لعجزه عن التصرف -، ورجل آخر سويُّ الخِلقة، سليم الحواس والأعضاء فهو يقول الحق والعدل ويأمر به، وهو علىٰ طريق واضح بين مستقيم لا اعوجاج فيه، فهل يستوي الرجلان؟! الجواب: قطعًا لا يستويان، فكذلك التوحيد والشرك لا يستويان، والخالق والمخلوق لا يستويان؛ فالتوحيد ينجي صاحبه ويكسبه رضوان الله والجنة، أما الشرك فيحبط عمل صاحبه ويدخله النار.

[٧٧] ثم بين سبحانه أنه اختص وحده - دون غيره - بعلم غيب السماوات والأرض، ومن ذلك: العلم بوقت قيام الساعة، فقال سبحانه: وما أمر إتيانها إلا كلمح البصر في سرعته؛ بل أقرب وأسرع من ذلك؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ لا يعجزه شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير.

[٧٨] ثم ذكر جل في علاه نعمًا كثيرة علىٰ عباده، ومن هذه النعم: أنه أخرجهم من بطون أمهاتهم إلىٰ هذه الحياة لا يدركون شيئًا مما حولهم، وأنعم عليهم سبحانه بالوسائل التي يتمكنون بها من إدراك مصالح دنياهم وأخراهم، ومن ذلك: السمع الذي يسمعون به، والبصر الذي بواسطته يبصرون الأشياء، والقلوب التي عن طريقها يعقلون ويفهمون؛ وطلب منهم جل شأنه شكر هذه النعم حقَّ الشكر، ويكون ذلك بإفراده عز وجل بالعبادة، وعمل الطاعات التي أمر بها الله.

[٧٩] ثم حض جل وعلا عباده علىٰ التفكر في بعض مظاهر قدرته؛ فقال سبحانه: أَلَمْ ينظر هؤلاء المشركون إلىٰ هذا الطير الذي يطير ويسبح في الهواء بين السماء والأرض! يقبض جناحه ويبسطه، تُرىٰ: مَن الذي علمه هذا الطيران؟! وأمدَّه بالأسباب التي يستطيع بها الطيران، وما الذي يمنعه من السقوط؟! إنَّ في هذه المخلوقات الطائرة وطريقة طيرانها لآيات وعلامات بينات واضحات علىٰ قدرة الخالق جل وعلا المستحق للعبادة دون ما سواه، وما ينتفع بهذه الآيات إلَّا العاقلون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمۡ مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ
وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ
٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ
شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ
٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ
فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى
ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧



[٨٠] ثم أخبر سبحانه أنه وحده يَسَّرَ لكم أيها الناس نعمًا عظيمة رأفة بكم ورحمة لكم، ومن ذلك: أنه جعل لكم بيوتًا ومنازل تستقرون وترتاحون فيها، وذلَّلَ لكم الأنعام وجعل لكم من جلودها وأوبارها وأشعارها ما تسكنون فيه وتتقون به البرد والحر، مما يخف حمله ويسهل نصبه حين النزول، ويخف وزنه ويسهل حمله وقت الرحيل والسفر، وجعل لكم من أصواف الغنم وأوبار الإبل، وشعر الماعز أثاثًا من الفُرش والألبسة والأغطية والزينة تتمتعون به إلىٰ أجل معلوم في هذه الحياة الدنيا.

[٨١] ثم أخبر سبحانه أنه وحده أنعم عليكم أيها الناس بأن جعل لكم منافع في مخلوقاته، ومن ذلك أنه يَسَّر لكم أشياء تستظلون بها من حر الشمس، ويسّر لكم أن تتخذوا من الجبال مغارات وكهوفًا تستكنون وتسترون فيها مما يضركم ويؤذيكم من برد ومطر وريح وغيره، وجعل لكم ألبسة وثيابًا تقيكم وتحفظكم من البرد وقسوته ومن الحر وشدته، وجعل لكم أيضًا ألبسة وأغطية ودروعًا تقيكم وتحفظكم من الأذىٰ وضربات السلاح حال حروبكم، وهكذا أنعم الله عليكم نعمًا عظيمة لا تعدُّ ولا تُحصىٰ، وأتمها عليكم، وكمَّلها لكم؛ لعلكم تستسلمون لله بالتوحيد، وتنقادون له بالطاعة، وتتبرؤون من الشرك وأهله.

[٨٢] ثم قال المولىٰ جل في علاه لنبيه ﷺ: فإن تولوا يارسول الله عن الإيمان وأعرضوا عن التوحيد بعدما أبلغتهم وذكرتهم وعدَّدت عليهم هذه النعم؛ فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فما عليك إلّا البلاغ البين الواضح وحسابهم علىٰ الله رب العالمين.

[٨٣] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين لا يجهلون هذه النعم؛ بل يعرفونها جيِّدا، ولكنهم ينكرونها بأفعالهم الباطلة فلا يؤدون شكرها، ولا يعترفون بها للمُنعِم جل وعلا؛ بل ينكرونها ويجحدونها ظلمًا وعلوًّا وعنادًا، وأكثرهم جاحدون معتدون ظالمون آثمون.

[٨٤] واذكروا أيها الناس يوم يبعث الله جل في علاه الأمم للجزاء والحساب يوم القيامة، وكل أمة سوف يشهد عليها رسولها ونبيها هل صدّقوا وآمنوا أم جحدوا وكفروا؟!، وفي ذلك اليوم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار عن كفرهم، ولا يطلب منهم توبة أو عمل صالح، فقد فات الأوان وفات وقت العمل، وعندها لا ينفع الندم ولات حين مندم.

[٨٥] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الظالمين الذين تجاوزوا حدودهم إذا شاهدوا وعاينوا العذابَ يوم القيامة؛ فإنهم يُبَادَرُون بالعذاب الشديد، ولا يُمهَلون، ولا يعطون فرصة أخرىٰ.

[٨٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين إذا أبصروا وعاينوا من عبدوهم من دون الله، صاحوا قائلين: يارب هؤلاء الذين كنّا ندعوهم من دونك ونشركهم معك في العبادة، فتنطق حينها الآلهة الباطلة قائلة: إنكم لكاذبون في اتخاذكم إيّانا شركاء لله، وإنكم لكاذبون في ادعائكم أن لله شركاء.

[٨٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين استسلموا وخضعوا وذلّوا لحكم الله، وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من افتراء الكذب علىٰ الله بأن له شركاء، وغاب عنهم افتراؤهم بأن هذه الآلهة المزعومة ستشفع لهم أو ستدفع عنهم شيئًا من العذاب.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ
بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾



[٨٨] يخبر سبحانه أن الذين جحدوا التوحيد، ولم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، ثم لم يكتفوا بذلك؛ بل صدّوا غيرهم عن التوحيد - ترغيبًا أو ترهيبًا -؛ هؤلاء لهم عذاب مضاعف، فلهم عذاب لضلالهم، وعذابٌ لإضلال وإفساد غيرهم.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه في يوم البعث والجزاء سوف يبعث من كل أمة رسولَها الذي أُرسل إليها؛ ليشهد لِمَنْ آمن ووحّد، ويشهد علىٰ من جحد وكذّب، ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه جاء به شهيدًا علىٰ أمته، وأنه أنزل عليه هذا القرآن فيه تبيان وتفصيل لكل شيء، من أصول الدين وفروعه، وجميع ما يحتاجه الناس في شؤون دنياهم وأخراهم، وأنه نجاة وهداية لمن آمن به، ورحمة لمن اتّبعه وعمل بما فيه، وبشرىٰ لمن صدقه بالنجاة في الدارين.

[٩٠] ثم أمر جل وعلا عباده بالعدل والإنصاف في حقّه وذلك بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقّه، وعدم بخس الناس وظلمهم، كما أمر بالإحسان في حقّه بأداء عبادته وطاعته علىٰ الوجه المطلوب، والإحسان إلىٰ الخلق في الأقوال والأفعال، كما أمر بصلة القرابة وبرِّهم والإحسان إليهم، ونهىٰ سبحانه عن كل قبيح وكل عمل أو قول شنيع، كما نهىٰ عن الظلم والتعدي علىٰ الناس، واعلموا أن هذه الأوامر والنواهي تذكير وموعظة لكم أيها الناس لكي تتذكروها فتعملوا بها.

[٩١] أمر جل وعلا عباده بالوفاء بكل عهد التزموا به بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس في ما لا يتعارض مع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما أمر عباده أن لا يتراجعوا في الأيمان بعد تثبيتها وتغليظها، وجعلوا الله شاهدًا وضامنًا عليها، واعلموا أن الله عليم بما تفعلون من الوفاء بالعهود أو نقضها، وسوف يجازيكم عليها بما تستحقون يوم القيامة.

[٩٢] وبعد أن أمر جل وعلا المسلمين بالوفاء بالعهود؛ نهاهم عن نقضها بعد توكيدها، ولا يكون حالهم كحال تلك المرأة التي أحسنت غزلها وأجادت صنعه ثم عادت فنقضته ونثرته فتاتًا، ولا تجعلوا أيمانكم التي أقسمتم بها عند العهود خيانة وخديعة تخدعون بها من عاهدكم من أجل أن هناك جماعة أكثر مالًا ومنفعة من الذين عاهدتموهم، واعلموا أن الله يختبركم بما أمركم ونهاكم من هذه العهود ونقضها؛ ليتبين المطيع منكم والعاصي، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ، وسوف يجازي كلًّا بما حصل منه من أمانة وخيانة.

[٩٣] ثم بين سبحانه أن قدرته فوق كل قدرة، ومن ذلك: أنه لو شاء لجعل الناس كلهم موحدين مستقيمين علىٰ التوحيد، ولجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، لكن لحكمة بالغة بسببها أوجد الجنة والنار جعل الإنس والجن مختارين؛ فمن اختار الضلال وأصر عليه ثبته علىٰ اختياره، ومن رغب الهداية والصلاح وأصر عليها ثبته علىٰ اختياره، ويوم القيامة سوف يسألكم الله أيها الناس عما كنتم تعملون في الدنيا ليحاسبكم ثم يجازيكم بحسب أعمالكم.

وقوله: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تجلو المعنىٰ وتوضحه، بأن كلا سوف يُسأل ويجازىٰ علىٰ عمله، فلو كان مجبورًا لما سُئل ولما عوقب أو أثيب.

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾



[٩٤] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين أن يتخذوا الأيمان والحلف بالله ستارًا للخديعة من أجل الوصول إلىٰ حظوظ النفس، فإن من جعل العهود والمواثيق والأيمان تابعةً لهواه، فيوفي بها إذا أراد، وينقضها إذا أراد؛ فهذا بمثابة من زلّت قدمه بعد أن كانت راسخة؛ فيقع في الهاوية بنفسه، ويوقع غيره معه بأن يكون له قدوة سيئة في نقض العهود والأيمان؛ فيتحمل وزره أيضًا، وسوف تذوقوا أيها الناس العذاب في الدنيا من المصائب والخوف والجوع وغير ذلك، بسبب إعراضكم عن أوامر الله ونواهيه، وبعد ذلك لكم يوم القيامة عذاب عظيم لا يمكن أن يتصور أحد شدته. والأيمان المذكورة في هذه الآية قيل: إنها أيمان البيعة، أي: الذين بايعوا رسول الله ﷺ فَنَقْضُهُم العهد خطأ كبير ربما كان فيه هلاك صاحبه. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[٩٥] ثم حذر سبحانه الناس أن يشتروا بنقضهم عهوده ومواثيقه ثمنًا قليلًا حقيرًا من متاع الدنيا الزائل الذي سيفنىٰ ويذهب؛ بل اصبروا وأوفوا بعهد الله وميثاقه، فما أعد الله لكم من الجزاء في الآخرة خير لكم وأبقىٰ وأدوم من حطام الدنيا إن كنتم تعلمون وتُميِّزون بين الثمن الزائل والأجر الدائم.

[٩٦] واعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا وحطامها - مهما كثُر - فإنه إلىٰ زوال، وأن ما عند الله فإنه لا يَفنىٰ ولا يزول؛ فقدموا ما يبقىٰ علىٰ ما يزول، فإنه من آثر الباقي علىٰ الفاني، وصبر علىٰ ذلك، وقدَّم محابَّ الله علىٰ محابِّ نفسه؛ فإن الله سيجازيه بأحسن ممّا عمل؛ فيضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، والله يجزي الصابرين أجرهم بغير حساب.

[٩٧] واعلموا أيها الناس أن من عمل عملًا صالحًا قد توفرت فيه شروط قبول العمل؛ بأن كان خالصًا لوجه الله، وموافقًا لهدي النبي ﷺ؛ سواءً كان العامل ذكرًا أو أنثىٰ، فليُحيينَّه الله في الدنيا حياة طيبة مليئة بالاطمئنان والاستقرار وعدم القلق، حتىٰ ولو كانت موارد الرزق كفافًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحياة الطيبة هي: الرضىٰ والقناعة، ثم يوم القيامة سوف نجازيهم الجزاء الأكبر لعملهم الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[الزمر:٧٤].

[٩٨] ثم وجه جل وعلا نبيه ﷺ إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يلتجئ إلىٰ الله ويستعيذ به من شرّ الشيطان المطرود من رحمة الله، قائلًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ليسلم من وسوسته وإشغاله.

[٩٩] ثم أخبر سبحانه أن من رحمته بعباده المؤمنين أن الشيطان الرجيم ليس له تسلّط علىٰ الذين آمنوا وصدّقوا، وتوكلوا علىٰ الله واعتمدوا عليه، وفوّضوا أمرهم إليه؛ حيث يطردون وسوسته وشكوكه بالتعوذ بالله.

[١٠٠] واعلموا أن الشيطان الرجيم لا يتسلط إلا علىٰ الذين لم يؤمنوا بالله ولم يصدّقوا رسوله ﷺ، الذين يجعلونه وليًّا لهم بطاعتهم إياه في الشرك والمعاصي؛ فهؤلاء يتسلّط عليهم الشيطان ويوسوس لهم، ويتلبس بهم، ثم يقودهم إلىٰ جهنم وبئس المصير.

[١٠١] ثم أخبر جل شأنه أنه إذا نسخ بحكمته حكمًا في آية بأن بدل آية بآية أخرىٰ؛ سَارَعَ المكذِّبون الجاهلون من كفار قريش بقولهم: يامحمد ما أنت إلا رجل يفتري الكذب، ويقول الشيء ثم يغيره، فبيَّن سبحانه أن أكثر هؤلاء الكفار جهَّال، لا يعرفون حِكَم الله في النسخ، ولا في غيره.

[١٠٢] وقل لهم يانبي الله: إن الله جل في علاه هو الذي أنزل القرآن عن طريق جبريل عليه السلام، وقد زكاه الله من العيوب، أنزله سبحانه بالحق والعدل والصدق في الأخبار والأحكام، وفي نزول القرآن مفرَّقًا علىٰ عباده المؤمنين وتوارده حسْب الوقائع والأحداث تثبيتٌ لهم علىٰ التوحيد والإيمان، واعلموا أن في هذا القرآن هداية للذين استسلموا لله وصدّقوا رسوله ﷺ من الضلال والحيرة في الدنيا، وبشرىٰ لهم بالفلاح في الدنيا، والفوز في الآخرة.

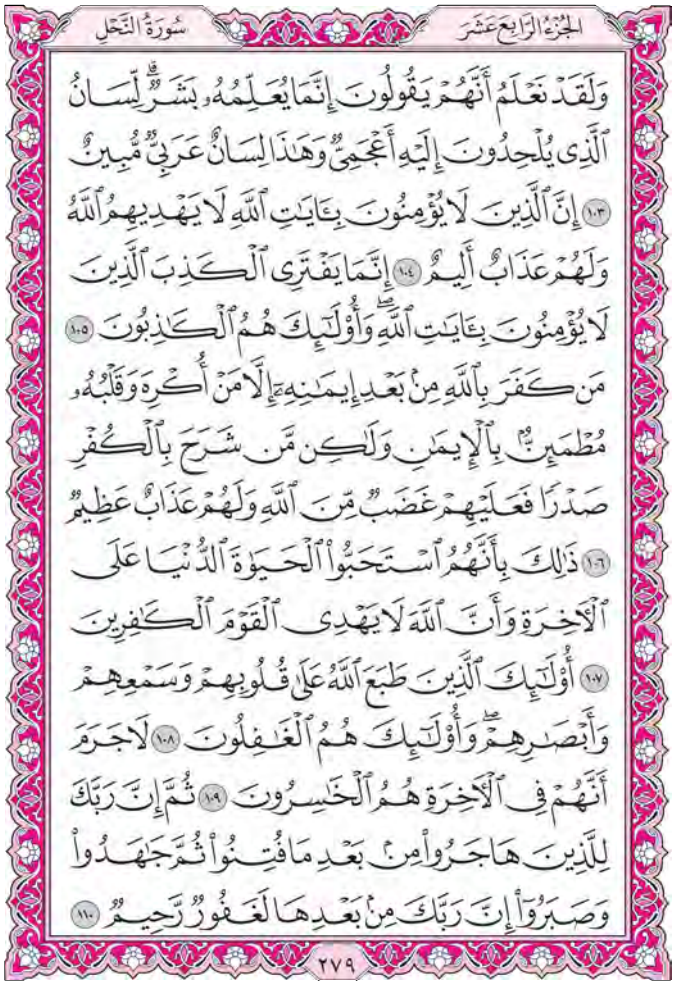


[١٠٣] يخبر جل وعلا أن المشركين افتروا فرية عجيبة علىٰ النبي ﷺ؛ حيث زعموا أن هناك رجلًا من البشر يُعَلِّمُهُ القرآن ويلقِّنُه إياه، فردَّ الله فريتهم هذه ودحضها، إذْ أن هذا الرجل الذي يدَّعون أنه يعلّمه القرآن ليس بعربي؛ بل أعجمي، فكيف يستقيم ذلك، والقرآن الذي يتلوه محمد ﷺ قرآن عربي مبين واضح جليٌّ معجز في غاية الفصاحة والبيان!!

[١٠٤] واعلموا أيها المؤمنون أن الكفار الذين لا يصدّقون بوجود الله ولا باليوم الآخر ولا بالقرآن فإن الله لا يرشدهم إلىٰ الهداية وطريق الحق في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع؛ جزاء إصرارهم علىٰ الكفر والجحود.

وهذا من عدل الله سبحانه؛ فإنهم إذا رفضوا الهدىٰ وكابروا وعاندوا فلا يستحقون التوفيق والهدىٰ، وإنما يوفق للهدىٰ من الْتمسه وبحث عنه، قال تعالىٰ في الذين اختاروا الهدىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد:١٧].

[١٠٥] ثم بين جل وعلا أن اختلاق الكذب لا يصدر عن الرسول ﷺ وعن المؤمنين، وإنما يصدر عن الكفار والمنافقين الذين يتهمون الوحي بالكذب ولا يصدّقون بآيات الله الكونية والقرآنية، وأصرّوا علىٰ الضلال وزاغوا؛ فأزاغ الله قلوبهم، وأولئك هم الكاذبون فيما قالوا في حق الرسول ﷺ وحق القرآن.

[١٠٦] يخبر جل وعلا عن شناعة الذين تلفظوا بالكفر بعد أن أسلموا كعبدالله بن خطل وطعمه بن أبيرق، وغيرهم ممن ارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه ثم ماتوا ولم يتوبوا؛ ثم استثنىٰ سبحانه الذين أُكرهوا علىٰ قول كلمة الكفر إذا كانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان كعمار بن ياسر وأصحابه، وهذه من خصائص أمة محمد ﷺ، ومن الآصار التي رفعها الله عنها، أما من شرح بالكفر صدرًا فاختاره وآثره علىٰ الإيمان؛ فعليه غضب الله وسخطه ولعنته في الدنيا، وله يوم القيامة عذاب عظيم.

[١٠٧] ثم أخبر سبحانه أنه هذا العذاب الأليم وهذا الغضب الذي سوف يتجرعه أولئك الكفار الذين ارتدوا عن دين الله؛ بسبب أنهم آثروا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، وركنوا إليها، ورفضوا الاستقامة ورحمة الله، واعلموا أن الله لا يهدي القوم الجاحدين، ولا يوفقهم للخير والصواب؛ بسبب اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه، ولا شك أن عدم هدايتهم جزاء ولا ليس ابتداءً.

[١٠٨] ثم أخبر جل شأنه أن أولئك الكفار الذين أحبوا الكفر وآثروه علىٰ الإيمان قد ختم الله علىٰ قلوبهم بالكفر فلا يصل إليها نور الإسلام، وختم علىٰ أسماعهم فلا يسمعون داعي الله إلىٰ الحق، وختم علىٰ أبصارهم فلا يرون الحجج والبراهين الدالة علىٰ ألوهية الله، وأولئك هم الساهون عن وعد الله ووعيده.

وهذا الطَّبْعُ هو طبع جزائي لإصرارهم علىٰ الكفر بعد البلاغ، وليس طبعًا ابتدائيًّا؛ لأنهم كسائر البشر مولودون علىٰ الفطرة.

[١٠٩] ثم بين سبحانه – أن أولئك الكفار الذين آثروا الكفر علىٰ الإيمان – أنهم حقًّا هم المغبونون الخاسرون الهالكون؛ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم، فقد فاتتهم الجنة ونعيمها، وليس لهم في الآخرة إلا النار، فبئست النهاية، وبئس المصير.

[١١٠] وبعد أن أخبر جل وعلا عن مصير أولئك الكفار الذين آثروا الكفر علىٰ الإيمان؛ أخبر سبحانه عن الثلة المؤمنة التي هاجرت في سبيل الله، فقال جل شأنه: اعلم يانبي الله أن ربك للذين هاجروا في سبيله، وتخلوا عن ديارهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، من بعد ما عُذِّبوا لترك دينهم، فلم يتركوه ولم يتنازلوا عنه؛ بل جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله في الأرض، وصبروا علىٰ مشاق هذه العبادة العظيمة؛ فهؤلاء يبشرهم الله بالمغفرة لهم، فهو واسع الرحمة بهم، وسيجازيهم الجزاء العظيم يوم القيامة.

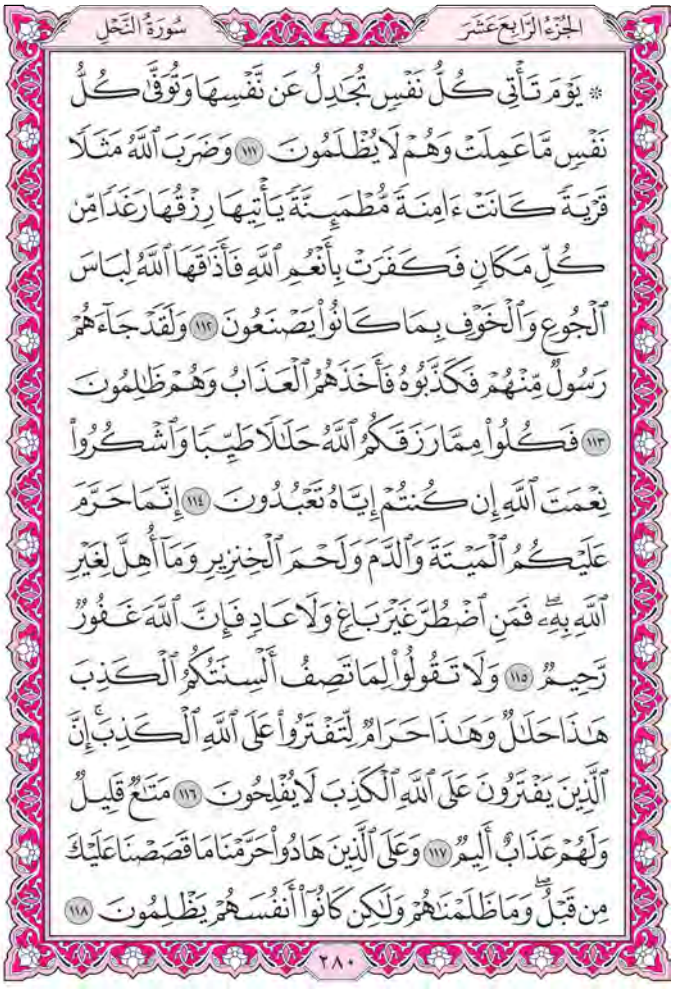
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ
ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ
هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾



[١١١] واذكر يانبي الله يوم أن تأتي كل نفس يوم القيامة تخاصم عن نفسها طلبًا للنجاة، ودعاء الأنبياء يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، ويومها تُطلب الشفاعة من الأنبياء، فيكون ردّهم: نفسي نفسي، فكيف بمن دونهم، وفي ذلك اليوم توفىٰ كل نفس ما عملت من خير أو شرّ، وهم لا يظلمون، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

[١١٢] وهذا مثل ضربه الله في بلدة كانت في أمن وأمان واطمئنان وأرزاق متوفرة، يأتيها رزقها هنيئًا سهلاً من كل جهة، فجحد أهلها هذه النعم، وذلك بعدم شكر المنعم وناصبوا الدعوة وصاحبها العداء؛ فأذاقهم الله أنواع البلاء والشقاء والخوف والجوع حتىٰ أكلوا أوراق الشجر والجيف، بسبب كفرهم وجحودهم لآيات الله.

هذه القرية قيل: هي مكة ضربها الله مثلًا ليتعظ بها الناس استجابة لدعاء الرسول ﷺ عليهم؛ حيث قال: «**اللهم اشدد وطأتك علىٰ مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(١)، وقال ابن عباس رضي الله عنه: (هذا المثل كان لأهل مكة؛ فإنهم كانوا أهل حرم آمن، يأتيهم الرزق من كل مكان).

وقيل: إنها إيلَةُ من مدن فلسطين كفروا نعمة الله فجعلها الله مثلًا لأهل مكة، وهو مثل لكل أهل بلد بطروا نعمة ربهم الذي أغدق عليهم النعم التي تتوارد عليهم من البر والبحر.

[١١٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إليهم رسولًا منهم يعرفون صدقه وأمانته ولا ينكرونه؛ فأمرهم بالإيمان بالله وحده، وتَرْكِ عبادة ما سواه، فما كان منهم إلا أنهم كذّبوه، ولم يؤمنوا بما جاءهم به؛ بل عادوه وحاربوه، فأنزل الله بهم عذابه من الخوف بعد الأمن، والجوع بعد الرغد، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ببقائهم علىٰ الشرك، وتكذيب رسولهم، وتركهم التوحيد.

[١١٤] واحذروا أيها الناس أن تسيروا علىٰ شاكلة تلك القرية التي كفرت بأنعم الله فأذاق الله أهلها أنواع الشقاء والبلاء، وحرموا تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم، أما إذا امتثلتم ما أمركم الله به من الطاعات، واجتنبتم ما نهاكم عنه من الذنوب والمعاصي؛ فعندئذٍ كلوا وتمتعوا بما أنعم الله به عليكم من الرزق الحلال الطيب من حيوانات وحبوب وثمار وترك الخبائث كالدم والميتة، ثم توجهوا لله بشكره علىٰ هذه النعم، وذلك بأن تعترفوا بها بقلوبكم، وتثنوا بها علىٰ من أنعم بها عليكم بشكره، ولا تصرفوها فيما لا يرضي الله إن كنتم مخلصين حقًّا في عبادته.

[١١٥] واعلموا أن الله حرَّم عليكم أكل الميتة - عدا الجراد والسمك -، وحرَّم عليكم الدم المسفوح، وحرَّم عليكم أكل لحم الخنزير وشحمه وجميع أجزائه، وحرَّم عليكم أكل ما ذُبح لغير الله، ولكن من ألجأته الضرورة إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات كأن يخاف الهلاك إن لم يأكل منها؛ فقد أباح الله لهذا المضطر الأكل منها بقدر ما يبقيه علىٰ الحياة، وبشرط ألا يكون في ذلك معتديًا علىٰ أحد، وألا يتجاوز حد الضرورة، وهذا من رحمة الله تعالىٰ بعباده، ثم بين سبحانه أنه كثير المغفرة والتجاوز عن عباده، وكثير الرحمة والرأفة بهم.

[١١٦] واحذروا أيها الكفار أن تقولوا الكذب والافتراء بألسنتكم، فتحلّوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم، وحسْب أهوائكم، ثم تنسبون ذلك إلىٰ الله؛ فإنّ هذا من افتراء الكذب عليه سبحانه وتعالىٰ، واعلموا أن الذين يفترون علىٰ الله الكذب وينسبون إليه أقوالًا مختلقة من قبل أنفسهم لا يفلحون في الدنيا والآخرة.

[١١٧] ثم بين جل شأنه أن هؤلاء الكفار إن تمتعوا في الدنيا فمتاعهم قليل زائف لا يدوم، ثم يكون مصيرهم ومأواهم النار خالدين فيها، ولهم فيها أشدّ العذاب.

[١١٨] ثم أخبر سبحانه أنه حرَّم علىٰ اليهود أكثر مما حرّم علىٰ أمة محمد ﷺ، وقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ من قبل أنه حرَّم عليهم كل ذي ظفر، وشحوم البقر والغنم، إلا ما حملت ظهورها أو أمعاؤها أو ما اختلط بعظم، وذلك بسبب طغيانهم ومجاوزتهم الحد، فكان تحريم ذلك عقوبة لهم، وبين سبحانه أنه ما ظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٦)، ومسلم (٦٧٥).

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ
﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ
إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾



[١١٩] واعلم يانبي الله أن ربك للذين فعلوا الذنوب والمعاصي جهلًا منهم لعاقبتها، ثم عادوا إلىٰ الله تائبين نادمين مما اقترفوه من الآثام، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم بأنواع الخير والطاعات؛ فإن ربك كثير المغفرة والرحمة لهم. ولا شك أن من عمل المعصية سفهًا فهو جاهل؛ ولو كان عنده علم كثير، قال ابن عباس: كل من عصىٰ الله فهو جاهل، وقال مجاهد: كل من عصىٰ الله خطأً أو عمدًا فهو جاهل حتىٰ ينزع عن الذنب، وقال الدكتور سلمان العودة: إن شهوة المعصية تغطي علىٰ العقل فيكون بذلك جاهلًا ويتصرف تصرف الجاهلين. وقد أعجبني كلامه هذا، فهو تحليل وجيه وهو أوجه من كون الإيمان يُرفع ثم يعود إذا تاب.

[١٢٠] يخبر جل وعلا أن إبراهيم كان إمامًا يُقتدىٰ به في كل خير وصلاح، وكان مطيعًا قائمًا بأمر الله، مائلًا عن كل الصوارف عن طاعة ربه والإخلاص له، ولم يكن من الذين أشركوا مع الله غيره.

[١٢١] وكان عليه السلام معترفًا بنعم الله عليه، وقد اختاره الله واصطفاه للنبوة والرسالة، وأرشده إلىٰ الطريق المستقيم وهو الإسلام.

[١٢٢] وفضله سبحانه في الدنيا بخصال حسنة؛ فجعله قدوة، وخلّد ذكره في العالمين، ورزقه رزقًا واسعًا، ووهب له ذرية صالحة، ثم هو يوم القيامة من المقربين أصحاب المنازل العالية والدرجات الرفيعة.

[١٢٣] ثم أخبر سبحانه أنه أوحىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن يسير علىٰ نهج إبراهيم ويتبع ملته في التوحيد والدعوة إليه، والتحذير من الشرك؛ فإن إبراهيم الخليل كان أبعد ما يكون عن الشرك بالله.

[١٢٤] واعلموا أن الله جعل تعظيم يوم السبت وتحريم العمل فيه ومن ذلك صيد الأسماك أمرًا خاصًّا باليهود الذين اختلفوا فيه علىٰ نبيهم موسىٰ؛ وليس لشريعة إبراهيم أو محمد ﷺ شأن في ذلك، ثم احتالوا وجعلوا في الشواطئ والبحر أماكن إذا دخلتها الأسماك يوم السبت لا تخرج منها؛ فإذا جاء يوم الأحد استخرجوها؛ فكانت عقوبة مخالفتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير، واعلم يا نبي الله أن ربك سوف يحكم بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه.

[١٢٥] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ وأتباعه بالدعوة بالرفق واللين، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهو أمر لكل الدعاة في كل زمان ومكان، وذلك بأن ينصحوا للناس بأحسن الطرق وألطفها، لأنه ليس علىٰ الرسول إلا البلاغ والتوجيه، أما هداية الناس فعلىٰ الله وحده، فهو أعلم بمن حاد من خلقه عن الطريق المستقيم، وأعلم بمن سلكه، وسوف يجازي كلًا بما فعل.

[١٢٦] ثم ذكر جل وعلا الأخذ بالثأر، وأنه لا تصح الزيادة والانتقام بأكثر من المِثْلِ؛ فمن أراد القصاص ممن اعتدىٰ عليه فلا يجوز له أن يزيد عمّا فُعِل به، ثم بين سبحانه أن من صبر فهو خير له في الدنيا بالنصر وفي الآخرة بالأجر العظيم.

قال القرطبي: جمهور المفسرين أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه لمّا قُتل يوم أحد ومُثِّلَ به؛ فغضب ﷺ وحزن حزنًا شديدًا، وتوعد المشركين بأن يعمل بهم إن أظفره الله عليهم أضعاف ما عملوا بعمِّه؛ لكن الله أمره بالعدل والإنصاف، وأن لا يعتدي في القصاص.

[١٢٧] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ بالصبر علىٰ مشاق الدعوة إلىٰ التوحيد، والتحذير من الشرك؛ فإنه سيلقىٰ في سبيل ذلك صنوفًا من الأذىٰ، واعلم يانبي الله أنّ هذا الصبر مستمدٌّ من الله، فهو الذي يثبتك ويؤيدك وينصرك، ولا تحزن علىٰ المشركين إذْ لم يستجيبوا لك، ولم يؤمنوا بك، ولا يضيق صدرك لمكرهم، ولا تحزن لكيدهم، ولا تجد في نفسك حرجًا.

[١٢٨] ثم ختم جل وعلا السورة بهذه الآية، وبيّن فيها أنه مع الذين اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأنه مع المحسنين في عباداتهم ومعاملاتهم وفي أداء فرائضه وحقوقه، كما أمر بها سبحانه في كتابه وبينها ﷺ في سنته.

والمقصود: هو المعية الخاصّة، والتي تعني اللّطف بهم ورعايتهم ومضاعفة أجورهم وتوفيقهم؛ لأن معيته سبحانه العامة حاصلة لجميع خلقه.